عنوان الدراسة

التغيير والنهوض في العالم العربي..

أسئلة في أدوار المثقف وإسهاماته في ديناميكية الثورات العربية

الحسن حما[1]

ملخص الدراسة

تحاول هذه الدراسة إبراز جوانب من إسهامات المثقف العربي في (ديناميكية) الثورات العربية، من خلال قراءة معرفية لإشكالية التغيير والنهضة في العالم العربي وعلاقتها بالنخبة المثقفة العالمة، لأن الحديث عن أدوار المثقف ووظيفته في بناء التغيير، يقتضي دراسة الإشكالات التاريخية والثقافية، المتجذرة في البنى الاجتماعية والفكرية للمجتمعات العربية، مثل تحديد طبيعة علاقة المثقف بالسلطة، وغيرها من القضايا التي أعيد طرحها مع الثورات العربية.

ومن أجل فهم سليم لطبيعة إسهامات المثقف في مسار الحراك الاحتجاجي والاجتماعي العربي؛ تنطلق هذه الدراسة من الخلفية الفكرية التاريخية والحضارية لسؤال النهضة والتغيير في العالم العربي، ودراستها وفق معطيات الواقع العربي اليوم مسترشدة بمتاحات علم «اجتماع المعرفة» (Sociology of knowledge). أي دراسة موضوع "أدوار المثقف في ديناميكية الثورات العربية" ضمن سياقه الاجتماعي والسياسي، المتسم بالدينامية، بروح نقدية، سواء المثقف الديني أو الشاعر أو السينمائي، أو الروائي أو الأكاديمي.

مدخل

أعادت الثورات العربية التي اندلعت شرارتها سنة 2011م قضية النهضة والتغيير إلى المجال التداولي العربي، باعتبارها انفجارات اجتماعية في منظومة القيم والأنساق، وحملت أسئلة مصيرية عن دور المثقف في التحولات الاجتماعية الكبرى. بحيث أبانت عن تقلص دور النخبة المثقفة وإسهاماتها المفترضة في التغيير والتحديث في الوطن العربي، الأمر الذي أحدث نوعاً من العزلة بين المثقف وتطلعات المجتمع، وقد شكلت تلك الأحداث السياسية والاجتماعية لحظة تاريخية نجحت في تحقيق الإجماع الوطني، بضرورة استكمال معركة تحرير الشعوب من الأنظمة الفاسدة المستبدة، الفاقدة للشرعية والمشروعية السياسية، والمستمرة في تزييف الإرادة الشعبية؛ كما شكلت تلك الثورات مؤشراً دالاً على فشل النخب السياسية الحاكمة وعجزها عن تحقيق الأمن الاجتماعي وإحداث تنوير ثقافي، وبناء دولة ديمقراطية تسودها العدالة الاجتماعية.

إن النقاش الذي واكب ميلاد الانتفاضات التي شهدها الوطن العربي، أبان عن محدودية حضور المثقف في تفسيره للأحداث؛ الأمر الذي أظهر عنه الاختلاف البين في تحديد ماهية تلك الأحداث، وما صاحب ذلك من نقاش مفهومي للأحداث التي شهدها العالم العربي بين من ذهب إلى اعتبارها حراك اجتماعيا، أو انتفاضة، بينما اتجهت بعض الدراسات إلى أن الانتفاضات التي شهدها الوطن العربي هي بالفعل ثورة عربية واحدة، مهما اختلفت سياقاتها وتعبيراتها هنا وهناك، وأن هذه الثورة تمثل نهضة ثانية بعدما تعرضت النهضة الأولى في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين للإجهاض. وليست مصادفة في شيء أن تكون كل من مصر وتونس في طليعة كلتا النهضتين[2]. بحيث دشن الفكر النهضوي لخير الدين التونسي ومحمد عبده مسار تجديد العقل العربي وإضافة مقوّمات التحديث في مؤسسات الدولة والمجتمع، فإن النهضة الثانية الحالية عبارة عن انتفاضة ديمقراطية ستضع الوطن العربي في قلب السياسات الدولية.[3] وأيًا كانت التسمية، فإن الأكيد أن تلك الأحداث استعاد معها العالم العربي اجتراح أسئلة الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية، وفرضت على النخب المثقفة إعادة النظر في منهجية تعاطيها مع إشكالات وتحديات الشعوب العربية، إن هي أرادت أن تجد لها موطئ قدم في سلم اهتمامات المجتمع وتنسجم مع طبيعتها الاستراتيجية في البناء والتغيير.

لقد اختلفت الآراء حول حضور المثقف والمفكر والعالم وإسهاماته في الحراك العربي؛ بين ناقد لهذه الفئة واتهامها بموالات الأنظمة التي ثارت ضدها الشعوب، ومن يرى فيها القدوة والموجه لتلك

الأحداث؛ وبين هذين الاتجاهين برز سؤال مركزي عن طبيعة إسهامات المثقف في (ديناميكية) الحراك العربي؟ وإلى أي مدى التزم المثقف بوظيفته؟ وهل من الضروري الحديث عن إسهامات المثقف بمعزل عن الفئات الأخرى؟ أسئلة كثير تكتنف موضوع الثورات العربية وأدوار المثقف فيها؛ ليس من أجل سرد أو تصنيف تلك الأعمال فقط؛ إنما المطلوب والأساسي محاولة فهم وتفسير موقع المثقف العربي في أجندة الأحداث ووظيفته في المشروع التغييري النهضوي العربي، على اعتبار أنه الفئة المؤهلة للتفكير في طبيعة المشاريع التنويرية والتحديثية المنسجمة مع خصوصية المجتمع العربي وطبيعته الاجتماعية والثقافية.

الخلفية الفكرية والحضارية لسؤال النهضة والتغيير في العالم العربي

تكتسي قضية النهضة والتغيير في العالم العربي مكانة محورية عند النخب الثقافية والسياسية، وحلماً تغنَّت به الجماهير، وهتفت من أجله في الميادين العامة، ومن الناحية التاريخية يمكن اعتبار أن الجذور التاريخية لقضية النهضة والتغيير في العالم العربي من وجهة نظر بعض المؤرخين؛ أمثال ألبرت حوراني تعود إلى حملة نابليون على مصر عام 1798م، في حين يؤصِّل لها آخرون بدخول إبراهيم باشا إلى سوريا عام 1832، لتنتهي مع اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914م، لكن تبلور القضية في صورتها الثقافية سوف يتضح أكثر مع بزوغ فجر القرن التاسع عشر الميلادي، حيث أخذت القضية تفرض نفسها ثقافيا وسياسيا في مختلف البلدان العربية والإسلامية. وما الإصلاحات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والبعثات الطلابية إلى أوروبا، ومحاولات تحديث المجتمع الإسلامي إداريا وعسكريا إلا صورة من الصور التي تعكس حدة تلك القضية وتجسد روحها[4]. ويشكل الصراع السياسي بين الشرق الإسلامي والغرب الاستعماري في النصف الأول من القرن العشرين خاصة، وما صاحبه من الغزو الفكري خلال فترة التسلط الاستعماري المباشر، وتقديم الغرب نفسه أنموذجاً حضارياً وثقافياً من خلال الاعتزاز بثقافته، ولغته، وتقاليده، وقيمه، التي حاول فرضها على البلدان المسْتَعْمَرَةِ، واستمر يغذيها عن طريق وسائل الاتصال المختلفة حتى بعد خروج

عساكره من العالم العربي والإسلامي، وكان لابد أن يظهر رد فعل في العالم العربي ليؤكد على الذاتية و الخصوصية وتوظيف الثقافة والموروث الديني لتحقيق ذلك[5].

لقد شكل هذا التلاقي بين الثقافتين العربية والغربية، بداية اكتشاف المسافة الحضارية بيننا وبين الغرب؛ والضعف العسكري والانتهازية السياسية والاجتماعية، والغزو الثقافي، في هذا السياق الثقافي المتسم بالغزو الفكري، وبروز إشكالات سياسية وطائفية؛ بدأ السؤال الثقافي والفكري محط اهتمام المثقف العربي والرهان على التغيير، ويمكن أن نعتبر أن السؤال الذي طرحه شكيب أرسلان " لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟ مؤشراً على وعي واهتمام النخب الثقافية العربية بحالة التأخر التاريخي للأمة، فكان المدخل الأول الذي حاولت الإجابة عنه، فكري إصلاحي من خلال محاولات إصلاحية: (جمال الدين الأفغاني، محمد بن عبد الوهاب، رفاعة الطهطاوي، عبد الحميد بن باديس، الشيخ ماء العينين، الكواكبي ، محمد عبده. وغيرهم) أو ثقافي تنويري (أحمد لطفي السيد، قاسم أمين، طه حسين، نصر حامد أبو زيد، محمد عابد الجابري، فرج فودة، فريد الأطرش، سيد درويش، نجيب محفوظ، جابر عصفور، جبران خليل جبران .... وغيرهم) وكلها إسهامات تسعى إلى إعادة الوطن العربي إلى مصاف الدول المتقدمة والمجتمعات المعاصرة.

كانت هذه البدايات - في دراسة قطبي الثقافة والتغيير- نابعة أساساً عن انشغال قومي عام بأسئلة الفكر والمرجعية والتحديث، خاصة عند الحديث عن وظيفة النخب الفكرية والمثقفة في صناعة التغيير، إذ كان واضحاً أن إسهامات النخب الثقافية لم تجد موقعها بشكل قوي ضمن التحديات المطروحة، مع حضور المعطى الأيديولوجي داخل هذه النخب نفسها، خاصة إذا تعلق الأمر بأسئلة المرجعية والهوية وموقعها في بناء الأنموذج المجتمعي.

الربيع العربي رؤية في إسهامات المثقف

أعادت الثورات العربية مسألة الحديث عن أدوار المثقف العربي وموقعه ضمن التحولات والأحداث التي أفرزها الحراك الاحتجاجي؛ سواء المثقف الديني أو الشاعر أو السينمائي، أو الروائي أو الأكاديمي الجامعي. لأن تلك النخب المثقفة لم تكن شرارة الثورة ولا كانت فاعلاً رئيساً في إطلاقها من دون أن يعني ذلك أن الثورات غير مؤطرة من قبل نخبة تعبر عن تطلعاتها ومطالبها، وقد راهن البعض على أن هذه الثورات وأحداث الربيع العربي سوف تشكل بداية تغيير وانبعاث ثقافي للمجتمعات العربية، على اعتبار أن تاريخ الثورات خصوصاً في القرنين التاسع عشر والعشرين، يشهد على أدوار مهمة للمثقفين أو ما يعرف بـ«الأنتليجنسيا» (Intellingansia)، سواء في ميلاد الثورات أو الإسهام في تغيير مجتمعاتهم أو العمل على تغيير نمط تفكير تلك المجتمعات بعد الثورات، مثلما كان عليه الأمر في الثورة الفرنسية عام 1789م والروسية عام 1917 والصينية عام 1949م، وهو أمر عرفته كذلك ثورات العالم الثالث التي وسمت القرن العشرين حيث كان للنخبة المثقفة، دور مهم في ثورات المكسيك عام 1910 وكوبا عام 1959 وإيران ونيكاراغوا عام 1979م.[6] ويعد هذا الإسهام تجسيداً حياً وتطبيقياً عملياً لمفهوم أنطونيو غرامشي (A.Gramsci) عن «المثقف العضوي». الأمر الذي أكدته ثورات الربيع العربي من خلال إسهامات عدد من النخب المثقفة في مسار الحراك الديمقراطي، وانسجامها مع مطالب الثوار ومشاركتها في النقاش السياسي والاجتماعي، ودعم مطالب الشارع العربي، لكن في المقابل هناك من ذهب إلى أنه من النادر أن يلعب المثقف أو الشاعر أو الأديب دور المحرك للثورة وقائدها، إنها حالة نادرة الوجود.[7]

إن الحديث عن إسهام المثقف ووظيفته في سياق الأحداث وما يجري من تحولات سياسية في العالم العربي، هو في حقيقة الأمر سؤالٌ عن ماهية «المثقف» و"إحساس عميق بالغموض في تعريفه، والتباس في تعيين دوره وموقعه؟ بحيث كيف يمكن التفكير في مثقف يجد نفسه في مواجهة حالة مستديمة من الاشتراطات التي تملي عليه تأجيل القيام بمهمته، أو الانخراط الفوري في حركية متأججة؟ هل العودة إلى سؤال المثقف والمسألة الثقافية تفيد بأن الأمر يتعلق بحاجة نقدية أم هي نتاج شعور بخوف بلا جدوى الكتابة والتأليف؟ ثم هل الخلفية المحركة لهذه العودة، يبررها التزام ما بقيمة الفكر بوصفه مدخلاً إلى إشهار الحقيقة، أم بوصفه مجالاً معيارياً لقياس الفاعلية والفائدة؟[8] لأن المثقف قيمته في إنتاجه المعرفي والثقافي، والتزامه بمسألة بناء الوعي، خاصة مع التحولات الثقافية التي طرأت على المجتمع العربي، نتيجة العولمة التي أفرزت النخبة التقنية في مقابل النخبة

المثقفة، ويمكن الإشارة إلى مستويات تجلي أدوار المثقف العربي في مسار الحراك الاحتجاجي على النحو الآتي:

- ❖ المثقف العضوي المنخرط؛ وهم المثقفين (Intellectuals) الذين انخرطوا بشكل مباشر في مسار تشكل الثورات العربية، أي المثقف العضوي بتعبير غرامشي الذي يعمل على إنجاح المشروع السياسي والمجتمعي الخاص بالكتلة التاريخية للمجتمع، وهو ما كشف عنه مسار الثورات من التزام المثقف العربي بقضايا المجتمع والانسجام مع اختيارات الشعوب من خلال انخراطه في الحراك الاجتماعي والمشاركة في النقاش السياسي، والنزول إلى الميادين، وقد جسدت الثورة التونسية والمصرية أحد النماذج لهذه الفئة المثقفة سواء المؤدلجة أو النخبة المثقفة المستقلة، كما سعت إلى تأسيس هيئات سياسية ومدنية تعبيراً عن انخراطها في مسار الأحداث السياسية، كما تجلى ذلك أيضا في الثورة السورية من خلال مجلس الثورة المعارض لنظام بشار الأسد، والذي ضم في بدايته عدد من النخب المثقفة.

- ❖ المشاركة الأدبية أو الانسجام مع الدور الأساسي للنخبة المثقفة في مواكبة الأحداث السياسية عبر الأعمال الفنية والتعبيرات الثقافية؛ أعمال روائية أو شعر أو مسرح وأفلام سينمائية...إلخ أي المساهمة عن طريق «أدب الثورة»، الذي يشكل المدخل الأساسي والاستراتيجي للنخبة المثقفة فبواسطتة تستطيع الشعوب العربية إعادة بناء الوعي وبناء الذات العربية وفق شروط الحرية والكرامة بما ينسجم مع اللحظة التاريخية، كما أن آداب الثورة وهي إعلان عن التصاق الأدب والفن مع إشكالات المجتمع وقضاياه، وقد تمكنت بعض النخب المثقفة التعبير عن هذا الرهان ومواكبتها للأحداث الجارية؛ فصدرت في هذا المجال عدد مقدر من الأعمال الأدبية التي ترصد وتؤرخ للثورة العربية وتحلل أحداثها، حتى أصبح الحديث عن أننا نعيش بداية بعث ثقافي وفكري.
- ❖ المثقف المنسحب أو السلبي؛ وهو تعبير عن مثقف السلطة الذي تجذر تاريخياً في السلوك السياسي العربي، بحيث أن مهمة التغيير عنده تؤسس على منظور السلطة الحاكمة، وما يخدم أهدافها السياسية، من خلال التبرير الثقافي لأعمالها، الأمر الذي كشفته بشكل واضح الثورات العربية، إذ لوحظ كيف أن النخب المثقفة التي تؤسس مشروعها الثقافي

على جلباب الحاكم كيف حاولت اعتبار أن ما تعيشه الشعوب العربية تمرد وعصيان اجتماعي فاقد للشرعية واعتبرته نوعا من الفتنة التي يجب التصدي لها.

إن النماذج الثلاثة للمثقف التي صاحبت ميلاد الثورات العربية، توحي إلى وجود أنماط مختلفة لأداور المثقف العربي في ديناميكية الحراك العربي، حسب موقع كل فئة وقراءتها للأحداث الجارية، غير أن الأكيد هو حضور المثقف في مسار هذه الأحداث، خاصة المثقف العضوي والملتزم بقضايا المجتمع، كما أن هذه المستويات الثلاثة تعيدنا بشكل مباشر إلى الخطاب التنويري والتغييري في العالم العربي، وإعادة النقاش حول مضمون المشروع المجتمعي، ومقوماته الثقافية، خاصة مع التحديات الطائفية التي حولت المنطقة العربية إلى مشاريع دويلات وقبائل متصارعة حول السلطة، لتبقى أسئلة بناء الدولة والمواطنة خارج أجندة التدافع السياسي.

خاتمة

أبانت الثورات العربية عن مسارات مختلفة لأدوار المثقف العربي في ديناميكية الحراك الاجتماعي والسياسي، الأمر الذي يشير إلى دور هذه الفئة في مسار المشروع التغييري للمجتمع، ودورها الاستراتيجي في تشكل الوعي وبناء الذات بما ينسجم مع الخصوصية العربية ويستثمر الخبرة الإنسانية، كما شكلت تلك الأحداث فرصة تاريخية في الوطن العربي لإزالة الحواجز الاجتماعية والثقافية بين الشعوب ونخبها الثقافية، وإعادة النظر في عدد من الإشكالات التي أفرزتها التجربة السياسية التاريخية (علاقة الثقافة بالسلطة) والتي تعمق المشروع النهضوي والخطاب التحديثي وتساهم في تعزيز عزل النخبة المثقفة من خلال اشتغالها خارج وظيفتها الاستراتيجية.

إن القراءة المعرفية لإشكالية التغيير والنهضة في العالم العربي وعلاقتها بالنخبة المثقفة العالمة، مدخل منهجي لمعالجة الإشكالات التاريخية والثقافية، المتجذرة في البنى الاجتماعية والفكرية للمجتمعات العربية، المرتبطة بأسئلة النهضة والتحديث، لأن تناول موضوع إسهامات المثقف في ديناميكية الثورات العربية غايته وفائدته إعادة النظر في المشروع الثقافي الذي يحمله المثقف العربي، ومدى تناسبه مع الرهان الذي بشرت به الثورة العربية.

الهوامش

[1] باحث بالمركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة

[2] Jean-Pierre Filiu, La Révolution arabe: Dix leçons sur le soulèvement démocratique (Paris: Fayard, 2011)

[3] أفاية نور الدين، "**ورقة العمل حول أداء المثقفين في معمعة الأحداث ملاحظات وتساؤلات**"، المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت بتاريخ 29 أيار/ مايو 2013م، ص 114

[4] أنظر الشارف عبد الله، "**الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر**"، منشورات نادي الكتاب لكلية الآداب تطوان، ط1، مارس 2003م، ص 108. والذي يستعرض فيه لسياقات بروز إشكالية التراث والنهضة في العالم الإسلامي.

5 العمري أكرم ضياء، "**التراث و المعاصرة**"، (كتاب الأمة) ط1، ص 22.

[6] العناني خليل، "**مأزق المثقف العربي بين الثورة والسلطة**"، بتاريخ 7 يناير/ كانون الثاني 2014م، http://alhayat.com/Opinion/Writers/375535/

[7] العظم صادق جلال، حوار في موضوع، "**دور المثقفين في الثورة**"، نشر على موضع "سؤال التنوير"، بتاريخ :24 05 2013م، أنظر الرابط: http://www.assuaal.net/node/301

[8] أفاية نور الدين، "**ورقة العمل حول أداء المثقفين في معمعة الأحداث ملاحظات وتساؤلات**"، مرجع سابق، ص 108